لمحة تاريخيّة عن نشأة علم الكلام

وحال العقيدة في العصور التي مرت بها

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن علي الربيعة

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لمحة تاريخية عن نشأة علم الكلام

وحال العقيدة في العصور التي مرت بها

للدكتور عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة
كلية الشريعة بالرياض

كانت الإنسانية إبّان مبعث محمد صلى الله عليه وسلم تعيش ظروفاً صعبة ، يسودها الضلال العظيم ، وتُمارَسُ فيها جميع الأعمال التي تنذر بالخراب والدمار ، فكانت تُسْفك الدماء ، وتُنتهك الأعراض ، وتُداس الكرامات ، وتنتهب الأموال ، وتعبد الأصنام ، ويحتكم في كل خلاف إلى قوانين البشر وعاداتهم .

وكانت العرب جزءاً من الأسرة الإنسانية الكبرى التي تعيش هذه الحالة ، وتكتوي بنار هذه الأوضاع الفاسدة .

وقد كانت في عقيدتها على ملل مختلفة ، ونحل متباينة ، فمنها من كان يدين باليهودية ، ومنها من كان يدين بالنصرانية ، وقد كان هؤلاء وأولئك يتخذون من اليمن ونجران ويثرب مقاماً لهم ، كما أنهم قلة بالنسبة لغيرهم من العرب .

أما الكثرة الكاثرة من العرب ، فقد كانوا يدينون بالوثنية ، كما كانوا يتخذون من مكة عاصمة لهذه الديانة .

وفي هذه الفترة المظلمة من فترات التاريخ بعث محمد صلى الله عليه وسلم في مكة ؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ويصوِّر ما قدَّمناه ما جاء في الصحيح من حديث عياض بن حمار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **إنَّ الله نظر إلى أهل الأرضْ فمَقَتَهم عَرَبَهُمْ وعَجَمَهُمْ إلا بقايا من أهل الكتاب، وإنَّ ربِّي قال لي : قُمْ في قريش ، فأنذرهم ، فقلت : أيْ ربِّ إن يثلغوا رأسي حتى يدَعُوه خُبْزَة ،فقال إني مُبْتليك ومُبْتَلٍ بك ، ومُنَزِّلٌ عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظانَ ، فابْعث جُنداً نبعث خمْسةً مثله، وقاتلْ بمَنْ أَطاعَكَ منْ عصَاكَ ،وأنفقْ أُنفق عليك وقال: إني خلقت عبادي حُنفاء فاجتالتهم الشياطين، وحرَّمتْ عليهم ما أحْلَلْتُ لهم ، وأَمَرْتَهم أن يشركوا بي ما لم أُنزِّل به سُلطاناً . . . .**(١) » .

وقد كانت دعوته صلى الله عليه وسلم قائمة في أول أمرها على ثلاثة مبادىء :

المبدأ الأول : أنه رسول الله إلى الناس كافة .

المبدأ الثاني : إبطال عبادة الأصنام ، وإخلاص العبادة لله وحده .

المبدأ الثالث : القول بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، وأن الناس سيبعثون بعد موتهم ، فيحاسبون ، ويجزون على أعمالهم ، فيثاب المطيع ، ويعاقب العــاصي .

وقد كانت العرب تكذّب بهذا المبدأ ، وتنكره أشدَّ الإنكار ، بل تسخر بمن اعتقده .

وقد كانت دعوة محمد – صلى الله عليه وسلم – في مكة خلال ثلاثة عشر عاماً أقامها فيها قائمة – تقريباً – على هذه المبادىء .

وقد بذل في سبيل ذلك جهداً كبيراً ، وبذل شتى المحاولات ؛ لإقناع مشركي مكة وغيرهم ممّن اتصل بهم بصحتها والإيمان بها ، والعمل بمقتضاها ، غير أنّ هذه المحاولات لم تنجح إلا في نفر قليل ، أمّا الكثرة ، فأنكروا عليه ذلك ، وسخروا

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ٢١٨/١ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

منه فيما يقول ، ورَمَوْه بأقذع الأوصاف ، وحذّروا القبائل العربية من السماع لما يقول ، والإيمان بما يدّعيه ، كما طفقوا يضعون له ما يؤذيه ، وللعصبة المسلمة من صنوف الأذى وألوان التعذيب ما يتوقّعون منه أن يفتنها عن دينها . وأن يكون عبرة لمن حدّثتْه نفسه بالإيمان بمحمد . فلا يُقدم على ذلك .

ومن هذه الملابسات التي صاحبتْ الدعوة في مكة تبيّن له – صلى الله عليه وسلم – أنها لم تعدْ تصلح في أول فجر الإسلام لأن تطبّق فيها تعاليم الإسلام– كما لم تصلح لأن تكون مُنْطلق دعوة . وقاعدة دولة إسلامية عظيمة . وتعيّن عليه أن يبحث عن بيئة تصلح لذلك ، ومجتمع يستقبل دعوته، ويحتضنها ويؤمن بها . ويطبقها ويكافح من أجل إعلائها .

فكانت تلك البيئة وذلك المجتمع هما بيئة المدينة ومجتمعها ، فهاجر إليها ، واستقبله أهلها استقبالا هائلا ، ورحّبوا به وبدعوته ، وآمنوا بها وصاروا يدعون للإيمان بها .

وبعد ذلك اتجه – صلى الله عليه وسلم – إلى الإصلاح الاجتماعي ، وتشريع ما يحتاج إليه الناس في حياتهم : من معاملات ، وأحوال شخصية وغير ذلك ممّا يتعلّق بما يحتاجون إليه ، فبيّنَ ما يحرم منه وما يكره ، وما يجب وما يُسَنّ ، وما يباح .

كما اتجه إلى تشريع العلاقات الإنسانية : بين الفرد وأسرته ، وبين الفرد ومجتمعه ، وبين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات غير المسلمة ، كلّ ذلك يبين الأحكام فيه وفق ما يوحيه الله إليه فيه .

كما أنه أخذ في نشر تلك المبادىء الثلاثة في القبائل العربية التي لم تدخل في الإسلام بعد ، وفي الأمم الأخرى غير العربية حيث كانت دعوته عامة للناس .

وفي هذه الفترة – وهي حياة الرسول صلى الله عليه وسلم – لم يتهيّأ لعلم الكلام أن ينشأ ؛ وذلك لأن الوقت الذي كان فيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في مكة لم يكن أهلها يؤمنون بأنه رسول ، ومن المعلوم حتماً أنهم لن يبحثوا معه – وهم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على هذه الحالة من الإنكار – في أسماء الله – تعالى – وصفاته ، وما يتصل بها من المباحث التي بسببها نشأ علم الكلام .

وأمّا في الوقت الذي كان – صلى الله عليه وسلم – فيه في المدينة ، فقد آمن به أهلها ، كما آمنوا بما جاء به من المبادىء الأخرى . إلا أن علم الكلام لم يجد من المدينة في ذلك الوقت بيئة خصبة ينبت فيها وينشأ ؛ وذلك لأمرين :

١ – أنهم عربٌ خُلّصٌ يفهمون دلالات الألفاظ وإشاراتها . كأدقّ ما يكون فهمها وأصدقه .

٢ – أنهم فِطْريّون ، فقلوبهم نقيّة لم تَعْلق بها ثقافات أجنبية ، ولا علوم عقلية مبنيّة على قوانين فلسفية مُعقّدة ، فلما جاءت شريعة الإسلام لاقت من قلوبهم إقبالا هائلا ، ومكاناً خالياً من أيِّ شيء آخر ، فآمنوا بها حقّ الإيمان ، وصارت في قلوبهم عقيدة صافية ، لا تشويش فيها ولا غموض .

أضف إلى ذلك أنه لو خطرت لأيّ إنسان منهم خاطرة وعنّ له إشكال فإنه يقفز إلى ذهنه أنّ إزالته بسؤال رسول الإسلام قبل أن يرى أن في تأمّله هو وتفكيره ما يزيح هذا الإشكال ، ومن أجل ذلك نراهم يلجأون إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليحلّ لهم كلّ ما عنّ لهم من إشكال .

وكانوا يكرِّسون حياتهم ويصرفون جهدهم في الأحكام العملية وتطبيق شريعة الإسلام في مختلف مناحيها على جميع شئونهم .

ولم يقتطعوا من حياتهم أو يصرفوا من جهدهم جزءاً به يثيرون المشكلات ، ويَعْقِدون من أجلها الجلسات والمناظرات .

غير أنه لا يفوتنا – ونحن نختم عصر الرسول صلى الله عليه وسلم بحثاً ، أن نذكر أنّه لم يَخْلُ من بعض ما يمكن أن يسمّى بذرة لعلم الكلام ، وُضِعَتْ في الساحة الإسلامية ؛ لتنمو شيئاً فشيئاً حتى تكون – فيما بعد – دوحة عظيمة تتناول جميع جوانب العقيدة ، وتتعمّق في بحث جزئياتها .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويؤيد ما ذكرناه ما روى من أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خرج على أصحابه مرة ، وهم يتناظرون في القدر ، ورجلٌ يقول : ألم يقل الله كذا ، ورجل يقول : ألم يقل الله كذا ، فغضب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال : أبهذا أمرتم ؟!! ، إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً لا يكذب ، انظروا ما أمرتم به فافعلوه ، وما نهيتم عنه فاجتنبوه »(١) .

ولقد كان هذا وأمثاله مما جعله – صلى الله عليه وسلم – يتوقع الفرقة بين المسلمين فقد قال : **(لتتبعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه » .**

وحيث كان عصر كلّ من الخلفاء الثلاثة : أبي بكر ، وعمر ، وعثمان امتداداً لعصر الرسول – صلى الله عليه وسلم – ؛ إذ أن المجتمع هو بقية مجتمع الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، والمسئولين فيه هم المسئولون في عصر الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، حيث كان الأمر كذلك ، فإننا نراهم يتجهون إلى الأحكام العملية ، فيطبّقونها على أنفسهم وأهليهم ومجتمعهم ، وإذا جدّ لهم حادثة ، لجأوا إلى كتاب الله ، فإن لم يجدوا فإلى سنة رسول الله ، فإن لم يجدوا تشاوروا فيما بينهم ، فإذا اتفقوا فيها على حكم واحد أخذوا به ، وصار له صفة الإجماع ، فإن لم يحصل ذلك قاسوها على ما يشبهها ممّا له حكم بيّن .

وأما في العقيدة فقد سلكوا فيها ما سلكوه في عصر الرسول – صلى الله عليه وسلم – من أخذها من النصوص نقية صافية ، دون عرض لها على القوانين الفلسفية ، أو عَقْد اجتماعات ، لطرحها للمناقشة والمناظرة ومن ثمّ العمل بالنتائج التي يُوصَلُ إليها من خلال ذلك .

غير أنه قد جدّ في عهد الخلفاء الثلاثة ما لم يكن في عصر الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، فقد اتسعت رقعة دولة الإسلام ، ودخل في الإسلام من لم يكن قد

---

(١) انظر فيما تقدم : الملل والنحل للشهرستاني ، وتاريخ الفرق الإسلامية لعلي غرابي .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دخله في عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ومن هؤلاء من لم يفهم روح الإسلام، وما انطوى عليه من أسرار . كما أن منهم من كان على جانب من الثقافات التي كانت سائدة في مجتمعاتهم .

ولا شك أن مثل هذا من شأنه أن يحدث لصاحبه شيئاً من الغموض في بعض المسائل ، ويستدعي كشفها بعرضها والتساؤل عنها ، وهذا كفيل بنموّ بذرة علم الكلام في الساحة الإسلامية وبين صفوف المسلمين .

وقد تجلّى ذلك في بعض الوقائع التي حصلت من بعضهم .

ومنْ ذلك ما روى أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – « **أتي بسارق فقال له : لمَ سرقت ؟ فقال : قضى الله علي ، فأمر به فقطعت يده ، وضربه أسواطاً ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : القطع للسرقة ، والجلد لما كذبَ على الله** »(١) .

وقد انتهت حياة الخليفة الثالث – رضي الله عنه – بالفتنة التي تولى كبرها عبد الله ابن سبأ اليهودي ، والتي وضع في سبيل قيامها للقضاء عليه ما وضع ، ممّا جعل دخولنا فيه : ذكراً وتفصيلا خروجاً عمّا أردنا بحثه تحت ذلك العنوان الذي التزمنا به في مطلع هذا البحث ، إلا أننا نقول : إنه لم يقصد من جميع ما نهجه من مسالك ، وما افتراه من تهم ، وما دبّره من مؤامرات إلا تشويه الإسلام في نفوس أهله ، وبث روح الفرقة بينهم ، وتقويض أركان دولته ، وفي النهاية القضاء الكلي على الإسلام .

ولكنه – وإن استطاع أن يحقق بعض أهدافه – فإنه لم يستطع أن يحققها كلها ، ولم يستطع مَنْ بعده في تاريخ الإسلام الطويل – ممّن أضله الله فأبغض الإسلام والمسلمين – أن يحققوا جميع مآربهم ، كما أنه لن يستطيع أعداء الإسلام في الوقت الحاضر ، وفيما يأتي بعده من الأزمان القادمة ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، لن يستطيعوا أن يحققوا جميع مآربهم : من تسديد الضربة القاصمة للإسلام ، وإزالته

---

(١) علي غرابي – تاريخ الفرق الإسلامية ص ١٥ نقلا عن المنية والأمل لابن المرتضى .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من الوجود ؛ إذ قد تكفّل الله ببقاء طائفة في كل عصر تحمل مشعل الإسلام ، وتجاهد في سبيله ، ويكون لها النصر على عدوها حتى يأتي الله بأمره .

وفي عهد الخليفة الرابع – علي بن أبي طالب رضي الله عنه – حدثت فتن وحروب بين المسلمين سببتها فتنة عبد الله بن سبأ ، وكان نتيجتها أن انقسم المبايعون لعلي رضي الله عنه – بعد موقعة صفين – إلى ثلاثة أقسام : شيعة ، وخوارج ، ومعتدلين .

وقد انفردت الشيعة بمبادىء خالفت فيها جمهور المسلمين ، كما انفردت الخوارج بمبادىء أخرى خالفت فيها جمهور المسلمين أيضاً .

وكانت كل فرقة تبني مبادئها على قواعد مستمدة من النظر ، كما كانت تدافع عنها ، وتناقش مبادىء وأدلة من يخالفها .

وقد كان لهذا أثر كبير في نموّ بذرة علم الكلام ، وتهيئة السبيل أمامه ؛ ليتخذ مكانه المناسب بين العلوم التي يسْعى لتحصيلها .

وما إن انقرض عصر الخليفة الرابع – رضى الله عنه – ، وجاء عصر الأمويين حتى واجهت الأمة الإسلامية كثيراً من الآراء الجديدة في شتى جوانب العقيدة .

فقد نشأت فرقة المرجئة « **التي ترى أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى ورسله ، وما سوى المعرفة من الطاعة فليس من الإيمان ، وأخّروا العمل عن الإيمان ، وقالوا : لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ..** » (١) .

كما نشأت فرقة الجبرية التي ترى أن الإنسان مجبور في أفعاله ، وأنه لا اختيار له ولا قدرة ، وأنه كالريشة المعلّقة في الهواء ، إذا تحرك تحركت ، وإذا سكن سكنت .

كما نشأت فرقة الاختيار التي تقول بعكس ما تقوله الفرقة السابقة ، ومُلخصه : « **أن العبد ليس مجبوراً ، بل هو مختار حرّ فيما يأتي ويذر من الأعمال ، له أن يفعل هذا ويترك ذاك ، لا سلطان لأحد على إرادته ، ينتقل متى شاء ، ويمشي متى شاء ، وينام ويستيقظ متى شاء** » (٢) .

---

(١) على غرابي : تاريخ الفرق الإسلامية ص ٢٠ .

(٢) على غرابي : تاريخ الفرق الإسلامية ص ٢١ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كما نشأت فرقة المعتزلة على يد واصل بن عطاء ، حينما كان يجلس إلى شيخه : **الحسن البصري ، فأسرع بالإجابة عن السؤال الذي وجّه للحسن عن حكم مرتكب الكبيرة بأنه في منزلة بين المنزلتين ، فاعتزل دَرْس الحسن ، أو أن الحسن طرده كما يقول البغدادي .**

فأقام واصل له حلقة خاصّة أخذ يؤلف له فيها طلاباً، ويشرح فيها آراءه ، ويدعمها بالحجج والبراهين ويسترسل في ذلك ، ويعود إلى أدلة مخالفيه بالمناقشة ، ممّا جعل العلماء ينسبون إلى هذا الدرس نشأة علم الكلام (١) .

وقبل أن نترك هذا العصر بالانتقال إلى العصر الذي بعده لا يفوتنا أن نبيّن موقف بني أمية من هذه الفرق ، وما تتبناه كلّ فرقة في موضوع العقيدة وما يتصل بها .

ولبيان ذلك على وجه التفصيل نقول : أمّا الأوائل من بني أمية فلم يكونوا يؤيدونها ، ولا يحتضنونها ، بل كانوا يناوئونها ، ويحاربونها ؛ لقرب عهدهم من عهد النبوة ، ولأنهم لم يختلطوا تماماً بالأمم الأجنبية ، ولأن هذه المبادىء التي تعتقدها تلك الفرق إنما كان السبب في نشأتها تلك الثقافات الأجنبية التي تُبْعِدُ المسلم عن فهم ما يجب عليه من خلال النصوص التي وردت بها ، والتي ترى أن يكون فهمه لذلك من خلال القوانين الفلسفية حينما تُعرض عليها مباحث العقيدة ، وذلك أمر لم يكن فاشياً في أوّل عهدهم ، بحكم عدم تقريبهم للأمم الأجنبية .

ويؤيد ما ذكرناه ما روى من أن الجعد بن درهم أظهر رأيه في كلام الله في أيام هشام بن عبد الملك ، فقبض عليه ، وأرسله إلى خالد القسري – والي العراق من قِبَله – وأمر بقتله ، فأخذه خالد ، وحبسه ولم يقتله ، فعلم هشام بهذا ، وكتب إلى خالد يلومه ، فعجّل خالد بقتله في عيد الأضحى بعد صلاة العيد على أنه أضحيته ، كما قال في خطبته : « انصرفوا ، وضحّوا تقبّل الله منكم ، فإني أريد اليوم أن

---

(١) وقيل إن واضع علم الكلام هو أبو الحسن الأشعري ومتابعوه ، وأبو منصور الماتريدي ومتابعوه.
كما قيل : إن عمر بن الخطاب تكلم فيه ، وإن الإمام مالكاً ألف فيه رسالة ، وذلك قبل ميلاد أبي الحسن .
(حاشية الباجوري ص ٩) .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أضحي بالجعد بن درهم ، فإنه يقول : لم يتخذ الله إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ، ثم نزل فذبحه »(١) .

وأما المتأخرون منهم ، فقد كان كل واحد منهم يؤيد ما يراه موافقاً له في نظره من الفرق ، وينافح عنه ؛ وذلك لكثرة اختلاطهم بالأمم الأجنبية ومصاهرتهم منهم ، فهذا مروان بن محمد – آخر خلفاء بني أُمية – يروي المؤرخون عنه أن أُمّه كانت أمة وأنها كانت أختاً للجعد ، كما يروون عنه أنه تعلّم مذهبه ، ولهذا لُقّب بالجعدي (٢) .

وإذا تجاوزنا عصر بني أمية إلى عصر العباسيين وجدنا أموراً لم تكن في عهد بني أميّة ، نجد أن الدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس ، كما نجد أن العباسيين قلّدوهم أزمّة الحكم ومناصب القيادة ، كما نجد أنه دخل في الإسلام عددهائل من الناس ، وفيهم من كان عنده ثقافات أجنبية ، كما أن فيهم من لم يدخل الإسلام إلاّ ظاهراً وما حمله على ذلك أيضاً إلاّ الدس في الإسلام والكيد له ، كما نجد حركة هائلة في ترجمة العلوم الأجنبية ، وذلك كلّه هيّأ للفرق الكثيرة أن تنشأ ، كما ضمن لها الحماية من لدن خلفاء بني العباس .

وقد كان الأمر كما وصفنا ، بل وصلت الحال من الضيق أن امتحن من ثبت على عقيدة السلف الصالح ، وسجن وأوذي .

واستمر الأمر على هذا الوضع من الشدة ، حتى جاء أبو الحسن الأشعري(٢٧٠ – ٣٣٠ هـ ونيف (٣)) فسلك في مسائل الاعتقادطريقاً وسطاً بين مذهب السلف الصالح – رحمهم الله – ومذهب من خالفهم ، وأخذ يقرر ما يراه في مسائل الاعتقاد عن طريق النظر .

---

(١) تاريخ الفرق الإسلامية ص ٣٢ .
(٢) تاريخ الفرق الإسلامية ص ٣١ .
(٣) وقيل ولد سنة ٢٦٠ وتوفي سنة ٣٢٤ هـ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد اشتهرت آراؤه ، ونصرها جماعة من كبار العلماء كأبي بكر الباقلاني ، وإمام الحرمين الجويني ، وأبي اسحق الإسفرائيني ، وغيرهم ، واعتنقها كثير من المسلمين ، وسمّيت بمذهب أهل السنة والجماعة ، لعلوّ جاهه وجاء هؤلاء النظار عند الخلفاء والأمراء ، ولكثرة أتباعهم من العلماء(١) .

وقد علا سلطان الأشعرية – خلال القرون الوسطى – فانتشر مذهبهم في أقطار المسلمين كلها ، وساد فيها ، وغلب على المسلمين اعتناقه ، بل صارت حِلَقُ الدرس تُدَرِّس العقيدة وفق منهجه ، ونصوص الكتاب والسنة تخضعُ – قسراً – في تأويلها بما يتمشى معه ، كما صارت المؤلفات في العقيدة تسلك منهجه فيما يحدده من مسائل ، وما يقرِّره في بحثها من طريق ، وما ينتهي إليه فيها من رأي .

كما كانت المؤلفات في العلوم الأخرى تطبق هذا المنهج ، وتأسر نفسها بالانتهاء إلى ما ينْتَهي إليه من رأي ، وذلك حينما تَعْرِضُ في بعض جوانب بحثها مسألة لها اتصال بالعقيدة .

وقد شاء الله – بعد طول هذا العهد – أن يخرج للأمة الإسلامية من يهتم بعقيدة السلف الصالح ، ويعليها بعد أن كانت مغمورة ، ويشيعها وينادي بها بعد أن كانت مطوية مجهولة عند الكثير . فجاء شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٦٦١ – ٧٢٨ هـ) الذي جمع بين العلوم العقلية والنقلية ، واستغلهما في إبراز عقيدة السلف الصالح ، وتسلح بهما في ندائه ؛ لرد الناس إلى كتاب الله – سبحانه – وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – كما استعملهما سلاحاً قوياً في معركته مع المذاهب الكلامية ، فحطم بهما كلّ ما واجهه من مذهب ، وهزم بهما كل من سوَّلت له نفسه أن يبارزه في مناظرة كلامية .

ويقول الدكتور محمد رشاد سالم ، فيه : « . . . إنّه قد أتيحت له فرصة لم تُتَحْ لأكثر من كان قبله من أجلّة العلماء ، فقد استنار عقله وقلبه بعلوم الكتاب

---

(١) محمد عبده : رسالة التوحيد مع تعليق رشيد رضا ص ١٨ ، وقد انتهى الأشعري في آخر أمره إلى مذهب السلف من كل وجه ، وصرح باتباع الإمام أحمد بن حنبل ، كما في كتابه الأبانة .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والسنة ، ثم سلط هذا النور على ما ذاع وانتشر في زمانه من الأفكار المنحرفة ، والآراء الزائغة ، فكشف عن عوارها ، وأبان عن مواضع خطلها وفسادها ، واستقى بعد ذلك من المنبعين الصافيين الطاهرين ما يقابل كل فكرة ضالّة من الأفكار الصحيحة التي توافق كتاب الله وسنة رسوله ، فوجدنا في تصانيفه بياناً لهدى الإسلام في كل مشكلة فلسفية أو كلامية أو غيرهما من المشكلات الخلافية ، أو محاولة جادة مخلصة — على أقل تقدير — لمعرفة هذا الهدي واستنباطه ، ولبيان مدى موافقة كل رأي ذائع أو مخالفته للكتاب والسنة (١) » .

وجاء بعده رجال تتلمذوا عليه ، وتشبعوا بفكرته ، واستناروا برأيه ، وسرى في قلوبهم ما كان مستولياً على جميع مشاعره من حماس لعقيدة السلف الصالح ، وعزم على نشرها والجهاد في سبيلها ، وردّ كل ما ينافيها .

وكان أعمقهم فهماً ، وأغزرهم علماً ، وأرسخهم قدماً ، وأعلاهم شناراً ، وأبرهم لشيخه ، وأكثرهم ملازمة له وحفظاً عنه ، وأشدهم اقتداء به العلامة ابن القيم رحمه الله (٦٩١ — ٧٥١ هـ) فقد حبس نفسه على مواصلة مسيرة شيخه ، وجنّد نفسه لنشر العقيدة السلفية ، والدفاع عنها وإبطال ما يخالفها ، وعكف على كتب شيخه يجمع مادتها ، ويهضم معانيها ، ويخرجها في أسلوبه السحري ، وعلى وفق الترتيب العقلي والبحث المنهجي الذي بزّ به أقرانه ، والذي اكتسبه من ثقافاته الواسعة والمتنوعة .

وبانقراض هذه العصبة القليلة التي استنارت بنور الكتاب والسنة ، والتي أدت واجبها في الحياة كما ينبغي أن يؤدى : جهادا بالدرس والتحصيل ، وجهاداً بالسنان واللسان والقلم ، وجهاداً بتقبّل الابتلاء والصبر على الأذى ، بانقراضها خيّم على الأمة الإسلامية في جميع أقطارها ليل حالك تسللت في ظلامه مبادىء في العقيدة مخالفة لعقيدة السلف الصالح فوجدت من الأمة الإسلامية جسداً ضعيفاً عن مقاومتها والامتناع عن الوقوع في شركها ، فاستغلّت ذلك الضعف فتسلّمت زمام القيادة ،

(١) مقدمة منهاج السنة ١/٩ — ١٠ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ونشرت آراءها في العقيدة حتى صارت حِلَقُ الدرس والتحصيل تطبق منهجها ، وحتى صارت الكتب التي تؤلّف في العقيدة تنهج نهجها وتقرّر آراءها ، وحتى صار الحكام والسواد الأعظم من المسلمين لا يعرفون في منهج الاعتقاد سوى منهجها .

وبينما كان المسلمون على هذه الحال من الضعف والتكفك وشيوع عقيدة غير السلف الصالح خرج في القرن الثاني عشر الهجري الشيخ محمد بن عبد الوهاب(١١١٥ – ١٢٠٦ هـ) في بلاد نجد ، وقد كانت في ذلك الوقت أبعد ما تكون عن منهج الله في العقيدة والعبادة والتشريع ؛ إذ قد انتشرت فيها الأصنام والأوثان ، وسيطر على أهلها حب هذه الأصنام وعبادتها والتقرب إليها ، وقد وضع الله في قلب الشيخ جذوة أوقدت فيه نار الحماس لعقيدته ، والشفقة على قومه من أن يتتابعوا في التهافت على هذه الهوة السحيقة من الضلال ، فأخذ يطلب العلم ويتنقل في سبيل تحصيله في شتى أقطار العالم الإسلامي ، ويلازم علماء عصره ممّن عرفوا بالصلاح والتقى ، وينكبّ على قراءة كتاب الله وسنة رسوله ودراستهما واستخلاص العقيدة من نصوصهما ، كما اتخذ من ابن تيمية وابن القيم أستاذين له على الرغم من تباعد العهد بينه وبينهما ، فعكف على كتبهما يقرؤها ويستوعبها ، ويهضمها ويخرج بالنتائج منها .

وقد حبس نفسه على الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ، وردّ الناس إلى عبادة الله وحده ، وتصحيح العقيدة الإسلامية في قلوب الناس وإزالة ما عَلِق بها ممّا ليس منها ، وجنّد لذلك لسانه إبلاغاً ودعوة ومناقشة ، وقلمه جمعاً وإحصاء ، وحصراً وتأليفاً ، فلقي في سبيل ذلك أذى كثيراً ممّن أشربوا في قلوبهم حب الأوثان وتقديسها ، وعبادتها وتقريب القرابين إليها ، ومن سدنة الأوثان والمتاجرين بها ، فلم تلِن له قناة ، ولم يفلّ له عزم ، ولم يتسرب إلى قلبه يأس .

وبينما كان الأمر على هذا الوضع من الضيق والشدة انضم إلى ذلك اللسان الصادق القويّ الحكام من آل سعود الذين آمنوا بدعوته ووعدوا بنصرته .

وبذلك تمّ ما جاهد الشيخ في سبيل تحقيقه ، فَحُطِّمت الأصنام ، ونقّيت العقيدة من جميع الشوائب ، وأُخلصت العبادة لله وحده ، وصارت حلق الدرس وما يؤلّف

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من الكتب في العقائد وما يتصل بها تسلك منهج مذهب السلف الصالح .

وقد استفادت من دعوته – رحمه الله – كثير من أقطار المسلمين ، فاستيقظت على هتافه بإحياء طريقة السلف كثير من البشر ، ورجعت إلى نفسها ، لتعرضها على المنهج السليم وتتلافى ما وقَعَتْ فيه من أخطاء .

ولم يزل أهل الجزيرة العربية وبخاصة شعب المملكة العربية السعودية مدينين لجهاد الشيخ – رحمه الله – ودعوته ، وتفانيه وإخلاصه في سبيل نشر المذهب السلفي وتعميقه في نفوس المسلمين .

ويتجلى ذلك في العقيدة الصحيحة التي يتحلى بها كل فرد منهم ، والتي بسلامتها وقوة تمسكهم بها لا تستطيع أن تستدرك عليهم زلة بالقلم أو اللسان في موضوع العقيدة .

ومن فضل الله سبحانه أن قيّض لهذه الدعوة السلفية من يؤمن بها ويتبنّاها ، ويساندها ويدافع عنها ، ويقف نفسه في سبيل نشرها : جيلا بعد جيل ، وفرداً بعد فرد حتى وقتنا الحاضر .

وخير شاهد لذلك أنها تراعى في جميع المراحل الدراسية فيقرَّر على الناشئة دراستها ، وتخطّط المناهج في ضوئها .

شبكة الألوكة - قسم الكتب